مدرسة القديس يوسف
راهبات القلبين الاقدسين
عين ابل - لبنان

الاسم: زينب سعد.

مدرسة القدّيس يوسف، راهبات القلبين الأقدسين، عين إبل.

<u>لبنان كما نحلم به.</u>

لو كان لبنان نصًّا.

بيروت الأبية غدت سبيّة
و شعب لبنان العظيم قد بات يتيم
أمّا مفرقعات السعادة فقد أصبحت إحدى طرق الإبادة
و نيران الغضب أوقفت النبض و في انفاثها غصةٌ تقول:
"اعذريني يا بيروت، فأنا عبدٌ مأمور"
و بعد انتهاء العاصفة، وقفت العاصمة على ناصية كابوسها هذا، و حاولت تعزية جمهورها قبل ان تُحتضر لكنها احتارت بمن تبدأ؛
بنفسها التي خسرتها أمام من ضحت لأجلهم، أم بشعبها الذي لطالما آمن بمقولة "لعلّ الغدَ افضلَ" حتى خسر الماضيَ و الحاضرَ و المستقبل!!
و فيما هي تنعي وطنها، لفظت أنفاسها الأخيرة الممزوجة بدخان الغدر و أنّت: "لن يضيع حقّنا عند الله" ثم حلّقت نحو السماء...
بهذه العبارات نعيت بيروت و ما فيها بينما كان الرّكام و أشلاء الضحايا تحت قدماي يحدّان حركتي و رائحة الموت و الدّماء و الدّخان هيّجت معدتي، و أنا أمام كاميرا زميلي أنقل الحدث مباشرة على قناة CBC بعد يومين من إنفجار ٤ آب الذي يُعتبر ثالث أكبر انفجار في العالم من هذا القبيل. بعد قليل انتقلت الى بقعةٍ أخرى كان قد تجمع فيها مجموعة من الشبان و الشابات بخوذاتهم و بدلاتهم السوداء، يلبسون القفازات و يحملون أكياس النايلون محاولين رفع الأضرار و الرّكام بعد أن تمّ إخلاء هذه النقطة من الضحايا. بعضهم كان يبكي و الآخر كان جالس على أحد الأحجار المهشّمة يراقب مدى كبر الفاجعة و البعض يعمل كخليّة النّحل فيما يكفكف دموعه. اقتربت نحو المسؤولة عنهم و المنظّمة لهذا الحراك و قد ميّزتها من قدرتها على توحيد الصفوف و تشجيعهم على النهوض و إكمال العمل من أجل "بيروت الحبّ" على حسب قولها و سألتها بعد "أن أثنيت على عملهم و جهودهم :" كيف كنتِ بتتمني لبنان يكون"؟
لأتفاجأ بردّها حول صيغة سؤال بصوتها الحازم:" قصدك كيف بدي يكون مش كيف كنت بتمنى" لتكمل بعد أن أزاحت نظارتها الشمسية عن عينيها: "كان لبنان بلد الحضارات، رمزًا للمجد، منشأ الثقافات و محطّ رحالها، مرسى للعلم و الطب..هذا ما عرفه العالم عنّا و هذا ما سنعمل لاسترجاعه" سؤالي ثم انتقلت نحو

زميلٍ لها و كرّرت ليجيبني" أحلم بلبنانٍ يشبهنا نحن أبناؤه. أحلم بلبنانٍ مزدهر و آمن، خالٍ من الحروب و الفتن و المآسي، بلبنانٍ مستقلٍ و مكتفٍ بأبنائه الكفوئين و بخيراته و قدراته".و فيما كنت أبحث عن متطوع آخر لأخذ استبيانه اقترب مني شابّ في مطلع عمره قد لا يتعدى سنّه الرّابعة عشرة و استأذنني للحديث، أخذ نفسًا عميقًا استجمع من خلاله قواه و قال:" كلّ ما أريده هو وطنٌ آمن، أذهب فيه إلى المدرسة و أنا على يقين بأنّي سأعود أنا و رفاقي، أخرج في نزهة مع أهلي دون أن أخاف من ظلمة الشوارع او سوء بنيانها كي نعود سالمين. أريد وطنًا أستمتع فيه بحفلات التّخرج و أعياد الميلاد والأعراس دون أن اختبأ في غرفتي خوفًا من الرصاص الطائش و السّلاح المتفلّت. أريد وطنًا آمنا".

وما ان أنهيت حديثي مع المتطوعين، انتقلت مباشرة الى مكان آخر أقرب الى موقع الحادثة وقد كان هناك حشد غفير. شققت طريقي بينهم بصعوبة وجلت بنظري على الوجوه المتعبة والمُرهقة والأصوات المنكسرة، يتدافعون للسؤال عن عزيزٍ مفقود فيقومون بوصف ملامحه راجين من أعضاء الدفاع المدني أن يطمئنوهم عنه. وقد لفتتني امرأة في العقد الخامس أو السادس من عمرها تجلس على الأرض على مقربة من الحشود، اقتربت منها وسألتها عن حالها فما كان منها الّا أن تصطنع ابتسامة قبل أن تجيبني بكلمة "الحمدالله". وعندما سألتها عن لبنان الذي تحلم به، جاء ردها بصوتٍ مبحوح:" أحلم بوطنٍ جميل، كجمال ولدي صاحب العيون العسلية" وقفت أمامها عاجزة عن الردّ إثر مطلبها هذا البسيط بمعانيه الكثيرة لذا استأذنتها ومضيّت لمقابلة شخص آخر. توجهت للحديث مع امرأة أخرى كان يبدو على ملامحها الغضب وقبل أن أنهي سؤالي أجابت: " أين العدل؟ أليس من المخزي أن يخسر لبنان أبناءه بأبشع الطرق؟ كلّ ما أريده هو أن أراقب ابني وهو يكبر بالقرب مني ليس من خلال شاشة الهاتف. لمَ عليّ التضحية بإبني وإرساله الى الخارج كي يحصل على وظيفة تليق بمستواه العلمي؟ ألم يدرس ويسهر الليالي من أجل أن يخدم وطنه وليحيا حياةً كريمة؟ اذًا أين هي فرص العمل والوظائف المؤمنة لهذه الأجيال الصاعدة؟ كلّ ما نحلم به هو وطنٌ يعطي أبناءه حقوقهم في نيل المستوى العلمي المطلوب بأقل التكاليف لأنّ هذا حق للجميع وليس حكرًا على ذوي الدخل العالي والحصول على وظائف تليق بهم".

بعد نهار طويل وشاقٍ، شهدت فيه على الكثير من المآسي، انتهت تغطيتي الإعلامية وعدت الى منزلي. دخلت غرفتي مسرعة وأخرجت الدفتر الأبيض وقد رُسم على جلده مجسم لأرزة خضراء صغيرة، كنت على عجلة لتدوين الأماني التي حفظتها لأدوّنها بجانب تلك التي حصلت عليها من المتظاهرين في ثورة 17 تشرين. كلّما فتحت هذا الدفتر، يجب عليّ أن أعيد قراءة هذه الأحلام بالرّغم من أنّني قد حفظتها. لا أعلم ما السبب في هذا لكنّها تشعرني بالأمان، وكأنني على اتصال بلبنان القديم أو ذاك الجديد الذي نتطلع إليه. فبين طيّات صفحات هذا الدفتر كُتبت أحلام أطفال ومراهقين يتطلعون لرسم ذكريات ملوّنة خالية من الخوف وآمال آباء وأمهات بتأمين حاجيات أولادهم دون أن يُضطروا لقول "لا" بسبب الفقر والشح الاقتصاديّ. أمّا أكثر ما يأسرني فهي هذه الأمنية التي دُوّنت بالقلم الأحمر بطلب من قائلتها وهي على فراش أحد المشافي:

أنا أحلم بلبنان خالٍ من الأمراض والعلل، بلبنانٍ سليمٍ ومعافى قادر على احتواء أبناءه والوقوف بجانبهم عندما تخونهم صحتهم. لطالما كان لبنان مقصد الدول العربية والمجاورة وبعض تلك الأوروبية نظرًا لجودة خدماته الطبيّة، كلّ ما أريده هو أن يعود هذا اللقب قولًا وفعلًا. ما هو ذنبي اذ لم يكن الخيار في يدي وقد اختارني المرض؟ اقتحم بيتنا المتواضع دون أن يبالي بدخلنا المحدود. لذا أتمنى أن يقدم وطني لغيري ما لم يستطع تقديمه لي؛ الطّبابة المجانية أو الشبه مجانيّة، تواجد الأدوية والعلاجات في جميع الأوقات لجميع الطبقات دون التمييز بين فقيرٍ وغني. أمنية أخرى قد سمعتها من أحد الفنانين العظماء القدامى الذين لم يجدوا من يبادلهم

المعروف الذي قدموه لوطنهم: لبنان الذي بدأت مسيرتي فيه كان مفعمًا بالحياة والألوان، كنت سعيدًا لما أقدّمه من أجله على أمل أن يقدّرني بعض التقدير في شيخوختي. أتمنى أن يعود لبنان الى سابق عهده، وأن يعطينا ما نتمنّاه من حقوق وتقديرات، ليس فقط بعد موتنا. أين لبنان من تأمين دخل خاصّ بكبار السن ومراكز خاصة للاعتناء بهم. لن ينهض لبنان إلاّ باحترام أبنائه صغارًا وكبارًا وهذا ما أحلم به".

أكملت تصفّح الدفتر بعد أن دوّنت جميع الإجابات التي حفظتها اليوم وقد التفتّتُ إلى رسالة على ورقة بيضاء ملصقة بآخر الدفتر:" إلى المراسلة العزيزة شيرين.. قد سمعت عن المشروع الذي تحضّرين لأجله وها أنا أكتب لك لأشاركك حلمي وحلم جميع الأمهات. نحن نحلم بوطن يحفظ لنا حقوقنا كنساء وأمهات، يحمينا من العنف والاستغلال ويضمن لنا قدرتنا على الطلاق دون تخلّينا عن أولادنا. نحن نحلم بوطن يطبّق القوانين ويلاحق المخالفين دون أن يبقيها أسيرة بين سطور الدستور. نحن أمهات من حقنا تغيير قوانين الحضانة ومن حقنا إعطاء القرارات وجعل الكلام مقترنًا بالأفعال فيما يخصّ أولادنا. دوّني هذا وكوني صوتًا للأمومة وأمانًا للأطفال".

سرحت قليلًا أفكر في الأحلام المختلفة التي تصبّ في فانوس واحد، الفانوس السحري الذي سيعيد لنا لبنان العزيز والكريم. متى حصل هذا؟ كيف أصبح لبنان "سويسرا الشرق" يحتلّ المراتب الأولى ضمن قائمات الفساد وأكثر البلدان اتكالًا على الاستيراد من الآخرين. بلد يجمع بين البحر والجبال والسهول الخصبة الممتدة من الشمال والبقاع نحو الجنوب بألوان تربتها المختلفة التي أكل الدهر وشرب من دخانها وقمحها وموزها.. من المؤسف ألّا يكون مكتفٍ ذاتيًا بمحصوله الخاص وخيراته المتنوعة. كم سيكون جميلًا أن تُرفع الأيادي الجاحدة عن هذه النعم فتتركها تحيا وتنتشر عالميًا دون استحقار او استغلال!

وفيما كنت لا أزال أتصفح الدفتر، وقع على الأرض بعض الصور الفوتوغرافية لمباني وآثار وبساتين لبنان القديمة. يا إلهي كيف أصبحت هذه الشوارع مكتظّة بمبانٍ عشوائية وطرقات متّسخة وامدادات مكتظة؟ أحلم أن أخرج كلّ يوم من بيتي لأتلذّذ برائحة القهوة التي تعبق في الشوارع النّظيفة التي قد نُظم سيرها وخفّ ازدحامها، أحلم أن أشعر بالانتعاش المنبعث من الأشجار المزروعة على طول الطرقات ومن أسطح المباني الشاهقة التي قد أُقيم عليها مشاريع لتوسيع المساحات الخضراء في لبنان. كم سيكون لطيفًا ومدهشًا بالنسبة للسياح أن تعود السكك الحديدية الخاصة بالقطارات للعمل فتنقلهم بين معالم لبنان الطبيعية والأثرية من مدينة الى أخرى! لم لا تعود؟ لا بد أن تعود، فلبنان غني بالنفط وعليه أن يستثمر هذا الحقل كي ينهض بنفسه وليعود الى الواجهة كي يلحق قطار الحضارات. من غير المنطقي أن يسمح لبنان بحضارته وتراثه ومجده الذي قد سبق وتحدثت عنه الكتب والصحف والمجلات لنفسه أن يتراجع ويتنازل عن مرتبته لصالح دول أخرى كانت لعبتها الوحيدة إعطاء شعبها حقوقهم فيما بقيت في لبنان أحلامًا مدوّنة على دفتر أبيض.

أغلقت الدفتر وأعدته الى الدرج. لازلتُ أشعر بالحيرة حيال ما إذا كانت هذه الأحلام والأماني قادرة على صنع لبنان جديد يحتضننا جميعًا كالأم الرؤوم. لا زلت أجهل ان كان هناك أمنيات قد غابت عنّا واختبأت تحت أسقف أناس آخرين لم يبوحوا بوجعهم بعد. ماذا ان كان هذا الذي نعيشه كابوس مؤقت وكلّ ما نحلم به هو بالفعل موجود في أرضنا العزيزة ووطننا الحبيب لبنان؟

أيًا كانت هي الحقيقة، سوف أبقى على الأمل بتحقيق الحلم الكبير، بالعيش في وطن كهذا الذي في دفتري الأبيض ذات الأرزة الخضراء.